

القيم اللغوية

في

معلقة امرئ القيس •

أ. إيمان فاطمة بلقاسم

جامعة - عبد الحميد بن باديس - مستغانم

إنّ قيمة الموروث الأدبي واللغوي للعربية يتجلى في مدوّنات العرب القديمة وإنتاجاتها، على اختلاف أغراضها واختلاف أزميتها، وتعدّد الروايات ووفرة الأجناس اللغوية والأدبية إنّما يدلّان على فطرة العربي وسليقته، بل بحسبان دلالة واضحة، وموهبة فنية كامنة في ذلك التناج وذلك الموروث وقوة فريدة على التصيير والتنسيق بين الأفكار والجمع بين المتناقضات، ذلك وغيره ممّا يُكسب هذه المادّة التراثية وهذا الرصيد اللغوي الكبير قيمة لغوية وأدبية. وأعني بالمادّة التراثية، ذلك الزخيم الهائل الذي وصل إلى ساحات الدرس من العصر الجاهلي؛ والذي تحتلّ المعانيات صدارته؛ فلفنة الشعر هي هذا العصر، لغة

غير عادية، غير أنها لغة أدبية مختارة وراقية من حيث تحديد معنى ألفاظها، وضبط تراكيب عباراتها¹، والحدث هنا يشمل القيم البلاغية والدلالية والصوتية.

1-1) القيمة البلاغية:

يختص الشعر الجاهلي بكثرة التشبيهات والاستعارات وجودها، ودقة التصوير، وبعد الخيال، وصدق التعبير، ولقد كانت لامرئ القيس وقفات مع يحمل هذه القيم البلاغية، نذكر منها:

1-1-1) التشبيه الملقوف : يعرفه القزويني بأنه « ما أتى فيه بالمتبهمين ثم بالمشبه هما² يتجلى هذا النوع من الصور البيانية في مواضع غير قليلة من معلقة امرئ القيس، ومن ذلك قوله³ : {الطويل}

وكشع لطيف كالجديل مخصر
وساق كأنبوب السقي المدلل
و واد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يغوي كالحليع المعيل

جمع امرؤ القيس بين كل مشبه و مشبه به؛ ففي البيت الأول جمع بين (كشع كالجديل) و (ساق كأنبوب السقي).

والكشع: الخصر، واللطيف: أراد الصغير الضامر. ويقال كأنبوب السقي معناه أن البردية تصير وسط النحلة على أحسن ما يكون من مثال الساق الغليظة الحسنة⁴.

وفي البيت الثاني جعل الوادي كوادي حمار الوحش بجامع الوحشة بينهما، وعواء الذئب في هذا الوادي يشبه عواء المقامر ذي العيال الذي حسر ماله، بجامع الفاقة والحاجة إلى الطعام فيهما.

و تعظو برخص غير شثن كائله
أساريسع طي أو مساويك إسجل⁵

وقد ذكره قدامة ممثلاً به : "ومنها أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير"⁶، وهنا أتى امرؤ القيس بمشبه واحد وهو بنان محبوبته الناعم غير الغليظ، والثاني مساويك شجرة الإسحل تدق أغصانها في استواء⁷.

1-1-2) التشبيه البليغ : في قوله:

لَهُ أَيْضًا ظَهْرِي وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِرْحَاءُ بَيْرَحْسَانٍ وَتَقْرِبُ تَنْفُسٍ⁸
وقد أورده ابن منقذ الكنائي (ت 584 هـ) في باب التفسير يقول: "اعلم أن التفسير هو أن تذكر جملة، فلا تزيد فيها ولا تنقص منها، ولا تخالف بينهما. وزعم الفرزدق أنه أكمل بيت قالته العرب أو قال أجمع بيت⁹.

اعترض ابن رشيق على هذا الأصل حين ذكر أن هذا التشبيه حسن إلا أنه لا يدل على نبوغ الشاعر، لأن نبوغه يكون من التشبيهات التي تلتفظ الأشياء بين الأمور المتاعدة، وهنا يجمع امرؤ القيس بين أربعة مشبهات وأربعة مشبهات بها (يشبه خاصرتي هذا الفرس بخاصرتي الظبي ويشبه ساقيه بساقي النعامة في الانتصاب والطول وعدوده بإرخاء الذئب وتقريب ولد الثعلب، وهو يجمع بين ذلك كله بغير أداة ولا وجه وإن كانا يلسحان من الكلام¹⁰.

1-1-3) الاستعارة : هو أن يستعار الشيء الخسوس للشيء المعقول¹¹، وقد ميّزت الاستعارة شعر امرئ القيس وخلدت في جيد الزمان درة، وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح في شق هذه الصدفه حتى زعم ابن أن أول استعارة وقعت في الكلام¹² هي في الأبيات التالية¹³: قال امرؤ القيس: {الطويل}

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَتَلَي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّ كَلِيلٍ

1-2- القيمة الدلالية :

تُعني الدلالة بدراسة معاني الألفاظ والجمل دراسة وصفية موضوعية، حيث تبين كيفية اتصال الكلمات بعضها ببعض، ثم تبين العلاقة الموجودة بين هذه الكلمات والظواهر التي تشير إليها في العالم الخارجي¹⁴، وإذا اقتربنا من الدلالة اللغوية في المعلقة نجدها غير عادية؛ فهي تحقق تجمع بديع المعنى ودقة الوصف، وعلى هذا سكتفي بدراسة بعض الأبيات من المعلقة.

قال امرؤ القيس¹⁵ {الطويل}:

كَبِكَرِ الْقَانَاةِ الْبَيَاضِ صُفْرَةَ
غِذَاهَا نَسْمِيرُ الْمَسَاءِ غَيْرِ الْمُحْتَلِ
تَصَدَّ وَتَبَدَّى عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي
بِنَاطِرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَحُرَّةٍ مُطْفَلِ
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّثَمِ لَيْسَ بِفَاجِشٍ
إِذَا هِيَ نَصَّتُهُ وَ لَا بِمُعْطَلِ
وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمَتْنِ أَسْوَدَ فَاجِحٍ
أُثْبِتْ كَقَنَوِ النَّحْلَةِ الْمُتَعَثِّكِ
غَدَائِرُهَا مُسْتَشْرِراتٌ إِلَى الْعُلَا
تُضِلُّ الْعِقَاصَ فِي مُشَىٍّ وَ مُرْسَلِ
وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرِ
وَعَظْمٍ بِرِخَصٍ غَيْرِ شَتْنٍ كَأَنَّهُ
تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهُمَا
وَأُفْضِحِي فَتَيْتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا
وَسَاقِ كَأَنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمَذْلَلِ
أَسَارِيعُ ظُبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحَلِ
مَسَارَةٌ مُمْسِي رَاهِبٍ مُتَبَلِ
نَوُومِ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضُلِ

إلى مثلها يرنو الخليم صباية إذا ما اسبكرت بين درع ومجول
تسكت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمنسول
ألا رب حصم فيك السوى ردده نصيح على تعذله غير مؤتل

تغطي هذه الأبيات في طياتها معنى دلاليا عميقا و مقدرات ذات معان إيجابية خاصة، فإذا أخذنا على سبيل المثال، كلمة "مُطْفِل" نجدها تكشف عن ارتباط المرأة بالأمومة من خلال حسن نظرها إلى طفلها من الرقة و الشفقة¹⁶، وقد كان الباقلاني (ت403هـ) دقيقا في إدراكه للهدف الدلالي عند شرحه البيت، فقد رفض تفسيرها على أن المقصود منها كون المرأة ليست بصبيبة « وقوله "مُطْفِل" فسروه على أنها ليست بصبيبة، وأنها قد استحكمت، وهذا اعتذار متعسف. وقوله "مطفل": زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذي ذكره الأصمعي. ولكن قد يحتمل-عندي- أن يفيد غير هذه الفائدة، فيقال: إنها إذا كانت مطفلاً خطت أطفالها بعين رقة، ففني نظر هذه رقة نظرة المؤدّة، ويقع الكلام معلّقا تعليقاً متوسطاً»¹⁷.

ثم يستكمل الشاعر ملامح الأنوثة في الأبيات التالية ويكاد يصل بهذه الملامح إلى تصوير المرأة على نحو مخصوص لا تشابه مع غيرها من النساء في كثير من الموصفات الجسدية و النفسية، وهو يعتمد في كلّ ذلك على عملية، أي نقل الملامح المتصلة بما يحيط به من حيوان أو طبيعة إلى أن يتحدث عنها، فقد أخذت من الرّئم شكل الرقبة، ومن النخلة كثافة الشعرو غزارته، ومن الخديل لين الخصر، ومن الأنبوب طراوة الساقين وملاستهما، ومن الأسروع و المسواك نعومة البنان ورشاقتها، ومن بيض النعامه صفاء اللون و نصاعته؛ ثم ينتقل الشاعر بالمعنى إلى مستوى آخر يخفي فيه عنى المرأة بعض القداسة حين يلمس فيها مظاهر الطهر و النقاء، وهذا الانتقال يمثل منطقة جذب تشدّ

إليها حركة الفكر والإحساس، وعلى هذا تنشأ علاقة فريدة لا يمكن إبطاؤها أو إلغاء وجودها، ويأتي المسلك التعبيري على شكل حلقة مغلقة، إذ كانت بداية الأبيات في صورة دلالية قريبة من الصورة التي جاءت في نهايتها، فقد تتابعت المواصفات في البيت الأول في تماسك تركيبي، لا يسمح لأي عنصر دخيل أن يفصل بينهما، حتى ولو كان هذا الفاصل حرف عطف¹⁸.

1-3) القيمة الصوتية:

يقوم تأليف الكلام على جملة من الأنظمة متكاملة الأداء، انطلاقاً من أدق جزء فيه؛ الذي هو الصوت، إلى الوحدات التركيبية الكبرى الواضحة، يقول "المحافظ": «الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يُوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف»¹⁹.

ما قاله "المحافظ"، يبرز لنا بوضوح أهمية الأصوات في التأليف والتركيب؛ معلوم أنه لا بد للكلمة كي تحظى بالقبول عند السامع أن تكون خالية من كراهة السمع، وذلك بأن لا تكون حروفها متنافرة بسبب تقارب مخارجها، وأن تكون خفيفة على الألسن، سهلة النطق، فيخف جرسها على اللسان، تلذها الأسماع ويحلو مذاقها²⁰.

فاللغة تتمتع بمجموعة من الضوابط التي تحافظ على إيقاعيتها الصوتية دونما صعوبة مخارجها أو تنافرها، فلم يحدث في اللغة أن التقت اللام والراء والنون، لقرب مخارجها، كذلك الميم والفاء والباء، ويندر التقاء الأصوات الرخوة، وكذلك أحرف

الطباق، مثل الصاد والضاد والطاء والظاء، كما نذر تلاقي أصوات الحلق²¹. ومن هذا المنطلق، عدّ الكثير من البلاغيين كلمة مُسْتَشْزِرَاتٍ في قول امرئ القيس:

غَدَايَرُهَا مُسْتَشْزِرَاتٌ²² إِلَى الْعَلَا تَضِلُّ الْعَدَارَى فِي مُثْنَى وَ مُرْسَلٍ²³

كلمة غير فصيحة، وذكرها في باب تنافر الحروف²⁴.

وفي مقابل ذلك رأى بعضهم الآخر أنّ في أصوات كلمة مُسْتَشْزِرَاتٍ حكاية دقيقة لمعناها؛ أي إنّ التّفشي الذي نلاحظه في صوت الشين، وانتشار الهواء وامتلاء الفم به حين النطق يشبه إلى حدّ كبير انتشار الشّعْر وتشتيته وذهبه هنا وهناك²⁵، وأراد بها الشاعر أنّها مفترولة على غير الجهة من كثرتها، أي أنّ هذه الغدائر قُصِّبت بالخيوط، وهو أن تُلفّ بالخيوط من أسفل إلى فوق، وهو الشيء الناشر²⁶.

إنّ قصائد ق6م الجديرة بالإعجاب تُبنى بألها ثمرّة صناعة طويلة²⁷، فالقصيدة تتألف من وحدات موسيقية يسموها الأبيات، وهي تبلغ عادة أربعين بيتاً، يلتزم الشاعر في جميع هذه الأبيات وزناً واحداً يرتبط بنغماته وأخانه، كما يلتزم حرفاً واحداً يتحد في نهاية هذه الأبيات يسمى الرّوي²⁸، وهذا ما يعكس النية الإيقاعية المشكّلة من داخل النص، والتي تضفي عليه خصائص صوتية معينة، وهو يعكس النظام الدلالي للقصيدة في تنوع علاقاتها وتعدّتها²⁹، والتكرار الصوتي، أي تكرار أصوات معينة في البيت الشعري أو في القصيدة، كفيل أن يضفي قيم صوتية من شأنها أن تحافظ على إيقاعية البيت، مثال ذلك قول امرئ القيس:

مَكْرٌ مَقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كَحُلُودٍ صَخِرَ حَطُّهُ السِّلُّ مِنْ عَلٍ³⁰

نلاحظ أنّ امرؤ القيس استخدم صيغة اسم الفاعل، وصيغ المبالغة (مكر مفر)، (مقبِل مدبر) التي تعبر عن استمرار الزّمن معبّراً بها عن حركة فرسه الذي يكرّ ويفرّ في آن

واحد. هذا التماثل في الصّبيغ يعد من المؤثرات الصّوتية في حدوث الإيقاع الموسيقي في النص الشعري، فالكميّة الصّوتية للصّيغة الواحدة تحوي أكثر من مقطع صوتي، وعندما تتماثل هذه الصّبيغ يحدث تماثل لأكثر كمّ مقطعي في القصيدة. كما نلاحظ تكرار أصوات بعينها مثل الرّاء، واللام، والميم، إضافة إلى توالي الحركات، فالراء بما فيها من التّرديد والتّكرار تناسب دلالة الكرّ والفرّ لما فيها من سرعة الحركة، كذلك اللّام والميم، من الأصوات المتوسطة أو المائعة، التي يغير معها الهواء مجراه، فمع الميم يمرّ التجويف الأنفي بعد أن يلقي سدّا في الشفتين، واللام يبع معها الهواء بين جنبات اللسان، كذلك نلاحظ غلبة الأصوات الرّخوة على البيت الشعري، التي من أهم مميزاتها الاستمرارية والامتدادية، كل هذه الصّفات الصّوتية المتعلّقة بالأصوات جاءت معبرة عن سرعة حركة الفرس، واستمرارها حتّى وإن صادفتها عوائق أو حوائل تمثلها و تصوّرها الأصوات الشديدة مثل: القاف، والباء، والطاء. وتوالي الحركات في بنية الكلمة يقابله توالي الحركة و الحدث، يقول "ابن جني": «والمثال الذي توالى حركاته للأفعال التي توالى الحركات فيها»³¹.

و بهذا نأتي إلى تنمة جولتنا في المعلقة بعد أن تعرضنا لتعريفها ومضامينها، والتي نتمنى أن نكون قد استوفيناها حقها، ومن هنا تتضح عراقة ومكانة المعلقة، فالأدب العربي الحاضر امتداد لذلك التاريخ العاطر، ومن أراد فصله عنه أو العدول عنه أو تناسيه فكأنما بتر حسما من رأسه أو كفا من ذراعها.

الهوامش

● مراجعة : أ.د. عبد الجليل مرتاض

- 1- هي الدين ريان، "الشعر الجاهلي تطوره و خصائصه الفنية"، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1982م، ص134.
- 2- القزويني- جلال الدين بن القاضي سعد الدين (ت 739هـ)، "الإيضاح في علوم البلاغة"، دار الكتب، بيروت، ط3، 1993م، ص252.
- 3- الديوان ص6-8.
- 4- يطر، أبو بكر الأنباري، "شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات"، ص64. وينظر: الزوزني- عبد الله الحسين بن أحمد، "شرح المعلقات السبع"، دار اليفظة العربية، بيروت، د.ط، 1969م، ص80.
- 5- الديوان ص37.
- 6- فدامة بن جعفر، "نقد الشعر"، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخاندي، القاهرة، ط3، 1978م، ص127.
- 7- الزوزني، "شرح المعلقات السبع"، ص81.
- 8- الديوان ص51.
- 9- الكناني - أسامة بن مرشد بن متقد-، "البدیع في البدیع في نقد الشعر"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، ص115.
- 10- ابن رشيق، "العمدة"، ص187/1.
- 11- الكناني، "البدیع في البدیع في نقد الشعر"، ص47.

- 12- ابن رشيق، "العمدة"، 186\1. وينظر مصطفى صادق الرافعي، "تاريخ الأدب العربي"، 3\155.
 - 13- الديوان ص 40-41 .
 - 14- أحمد مختار عمر، "علم الدلالة"، ص 24
 - 15- الديوان ص 31-33-34-35-36-37-38-39-40.
 - 16- ينظر: أبو بكر الأنباري، "شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات"، ص 59.
 - 17- الباقلائي، "إعجاز القرآن"، ص 179.
 - 18- محمد عبد المطلب، "قراءة ثانية في شعر امرئ القيس"، ص 91.
 - 19- الجاحظ، "البيان والتبيين"، 1\79.
 - 20- ينظر: يحيى بن علي إبراهيم، "الطراز المستضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1980، 1\113-114.
 - 21- ينظر: الخليل، "كتاب العين"، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط 1، 1\2003، 43\44.
 - 22- استشرر الخيل و استشرره فأتاء، ورد البيت في "لسان العرب"، مادة "شور"، 4\405.
 - 23- الديوان ص 34.
 - 24- ينظر: محمد محمد أبو موسى، "خصائص التراكم"، مكتبة وهبة، ط 4، 1986م، ص 64.
 - 25- محمد محمد أبو موسى، "خصائص التراكم"، ص 64 .
 - 26- ينظر: أبو بكر الأنباري، "شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات"، ص 63.
 - 27- ينظر: شوقي ضيف، "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، دار المعارف، القاهرة، ط 1، ص 14.
- نقلا عن Guidi, L'arabic Antéislamique

- 28- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص14.
- 29- ينظر: محمد محمد أبو موسى، "خصائص التراكيب"، ص64. وينظر: مشري بن خليفة، "البنية الإيقاعية في القصيدة العربية الحديثة"، مجلة الأثر، العدد3، جامعة ورقلة، 2004م، ص164-165.
- 30- الديوان 46.
- 31- ابن جني، الخصائص، - أبو عثمان (ت392هـ) -، تحقيق: الشريف شريد، دار الخابيث للطباعة والنشر، 2007م، 152\2.

قائمة المصادر والمراجع

- 1) - امرؤ القيس "الديوان"، تحقيق : درويش الجويدي ، المكتبة العصرية، بيروت-صيدا، ط1، 2008م.
- 2) - أحمد مختار عمر، "علم الدلالة". دار البقعة العربية، بيروت-، ط2، 2008م.
- 3) - البقلاوي "إعجاز القرآن"، تحقيق : أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط3، د.ت.
- 4) - أبو بكر الأنباري- محمد بن القاسم (ت327هـ-)، "شرح القصائد السبع الطوال"، تحقيق :عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط2، 1969م.
- 5) - يحيى الدين زيان، "الشعر الجاهلي تطوره و خصائصه الفنية"، دار المعارف، القاهرة، د.ط، 1982م.
- 6) - الزوزني-عبد الله الحسين بن أحمد ، "شرح المعلقات السبع"، دار البقعة العربية، بيروت، د.ط، 1969م.
- 7) - إباحظ -- أبو عثمان عمرو بن بحر- ، " البيان و التبيين"، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 1985م.
- 8) - ابن جني، الخصائص- أبو عثمان (ت392هـ-)، تحقيق: الشربيني شريفة، دار الحديث للطباعة والنشر، 2007م.
- 9) - الخليل، "كتاب العين"، تحقيق :عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2003.
- 10) - شوقي ضيف، "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، دار المعارف، القاهرة، ط1.

- 11) -- قدامة بن جعفر، "نقد الشعر"، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخالدي، القاهرة، ط3، 1978م.
- 12) -- القزويني - جلال الدين بن القاضي سعد الدين (ت 739هـ)، "الإيضاح في علوم البلاغة"، دار الكتب، بيروت، ط3، 1993م.
- 13) -- الكاكي - أسامة بن مرشد بن متقّد - "البدیع فی البدیع فی نقد الشعر"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.
- 14) -- محمد عبد المطلب، "قراءة ثانية في شعر امرئ القيس"، دار الحديث للطباعة والنشر، 2007م.
- 15) -- محمد محمد أبو موسى، "خصائص التراكم"، مكتبة وهبة، ط4، 1986م.
- 16) -- مشري بن خليفة، "البنية الايقاعية في القصيدة العربية الحديثة"، مجلة الأثر، العدد3، جامعة ورقلة، 2004م.
- 17) -- ابن منظور - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، "لسان العرب"، دار صادر للطباعة والنشر، دار صادر، بيروت، ط1، 1992م، مادة "شرر".
- 18) -- يحيى بن علي إبراهيم، "الطراز المستضمن لأسرار البلاغة و علوم و حقائق الإعجاز"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1980.

التواصل في أبحاث إيكو •

أ. حياة نصيف

جامعة تلمسان

لقد ولد الاهتمام بالاتصال رمزا وإشارة ونطقا وكتابة... الخ علما يدرس أشكاله المختلفة وهو "علم التواصل" أو "علم الاتصال" الذي قال عنه "هوغ Hogue": "يشكل جزءا من ديكور الإنسان الذي عرف تطورات مع مرور الزمن"¹. ومن هنا بات من الضروري دراسة قضايا دراسة علمية، من أجل الإفادة منها في حل الإشكاليات التي تطرح في محاله. ونظرا لهذه الأهمية فقد شغل موضوع "التواصل" معظم العلماء والباحثين المختصين في مختلف فروع المعرفة الإنسانية، وقد سلط الضوء في هذا المبحث على أمبرنو إيكو (Umberto Eco) كمنظر سيميائي إيطالي وقد تشجعت في خلق هذه الإشكالية أي التواصل في أبحاث إيكو، لاشتغاله على عدة أنساق دالة كالنصوص الجمالية اللغة والإشهار والصورة والسينما والموضة والفولكلور والتاريخ والفلسفة وفلسفة اللغة ثم الرواية وكتابة الرحلات².

فإذن يُعدّ إيكو الأب الفعلي للنظرية التأويلية النقدية³ الباحثة عن علاقة التأويل النصي بالثقافة والتواصل. وقد أعطى التواصل من الناحية الدلالية بعداً موسوعياً للسان/النص. المتلقي، وهبط بالثقافة من عليائها المتعالي وأطعمها بأدوات الواقع المحض. فكان مغامراً في المعرفة، أراد إيجاد مترلة بين المنزلتين فأقام تركيباً كيميائياً معقداً جداً³.

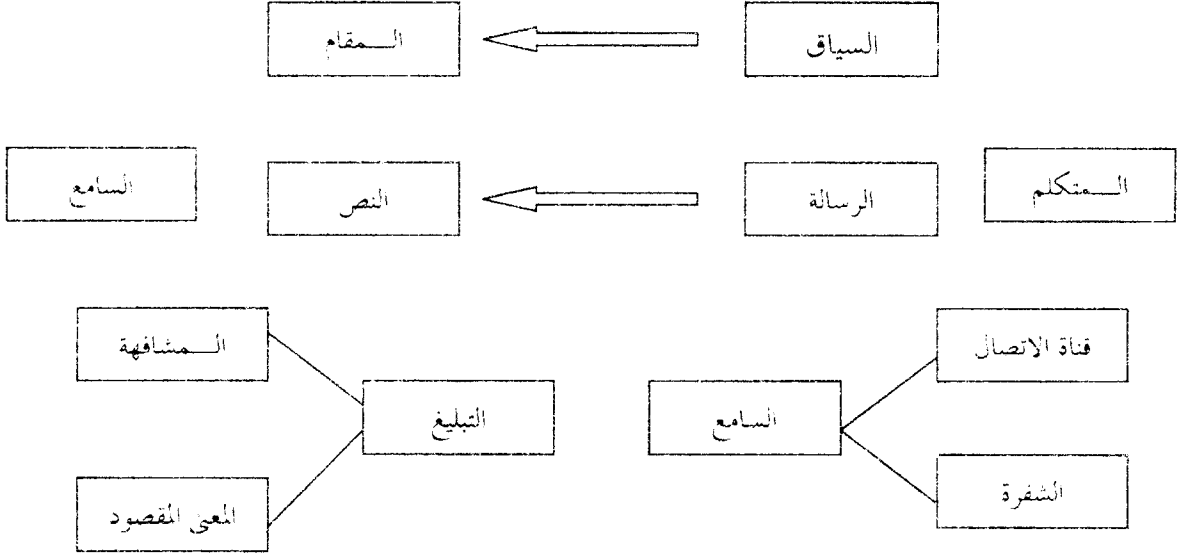
ولا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة، كان قد أشار إليها مصطفى ناصيف في كتابه "اللغة والتفسير والتواصل"⁴ وهي ضرورة استبعاد الفهم التام عن الافتراضات التواصلية مقارنة بتعدد الخطابات التي تتطلب دراسة بتقنياتها وأنظمة تعبيراتها لذا يجب قراءة الملاحظات الخاصة بالمعنى واللغة والتواصل فالبلاغة مثلاً تهتم بالشكل وبالمعنى في حين أن التداولية تدرس استعمال الشكل وتودُّ الوصول إلى المعنى.

1- مقولات تنشيط القراءة عند إيكو:

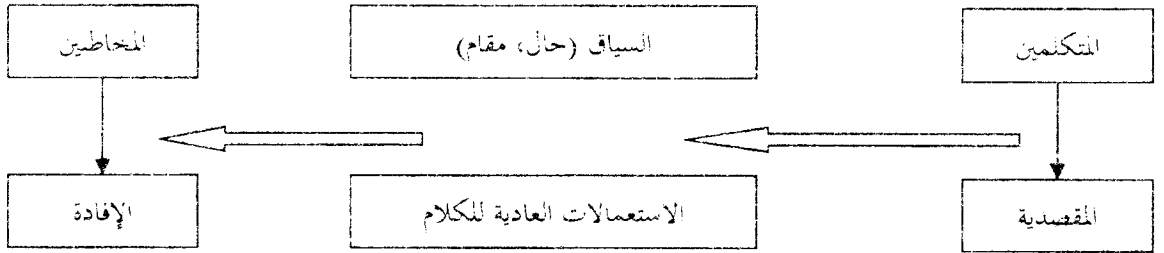
وايكو يتعامل مع النص على أنه آلة كسولة ترغب في "قارئ نموذجي" يعمل على التنشيط والتوليد والتأويل كما فعل الكاتب في البناء والتكوين، وقد طرح ميكانيزمات القراءة من خلال تحديد المقولات الثلاث العامة على تنشيط القراءة وهي: الموسوعة، الوقع المفترض، والعالم الممكن⁵.

وسأحاول في هذا المبحث تبين كيفية تحقيق هذه المقولات الثلاث لقراءة نشيطة تساهم في خلق تواصل فعلي بناء ومثمر.

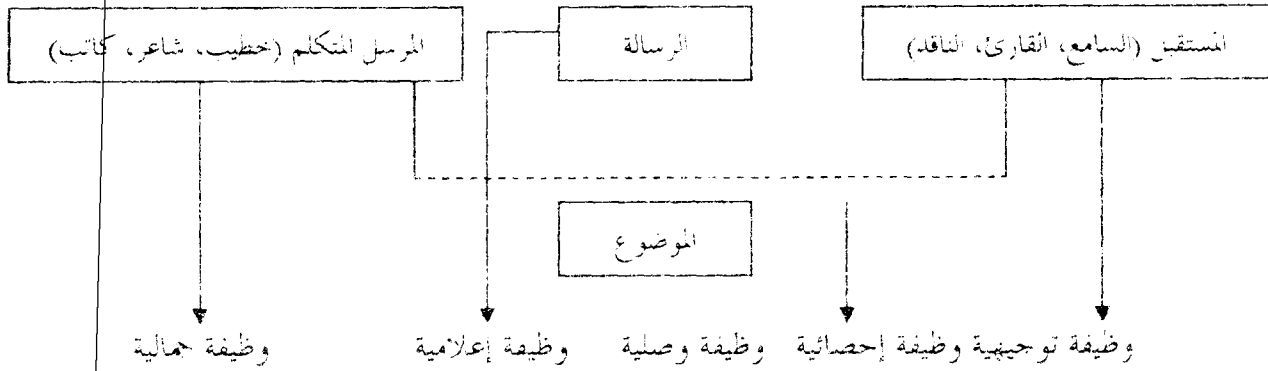
- مخطط جاكوبسون (Jakobson)⁶ للتواصل: (أ)



ويمكن إضافة المخطط التالي⁷: (ب).



كما لا تغفل مخطط "تمام حسان"⁸: (ج).



ولنفترض أن المخططات الثلاث (أ)، (ب)، (ج) (الباحثة في العملية التواصلية بلاغيا وتداوليا أي تداوليا) تمثل الأركان الأمثل والنموذج المقاس عليه في العملية التواصلية أو بعبارة أخرى لنقل أن هذه المخططات هي القاعدة الأساسية للتواصل التي سنرى مدى توافق آراء ومقترحات إيكو معها وبالتالي سنحجب عن إشكالية مهمة وهي: هل يوجد تواصل صريح أو ضمني أو دعوات إليه في أبحاث إيكو؟

والجواب⁹: بالتأكيد إيجابا، فالموسوعة هي رصيد لغوي وثقافي ضارب في سياق اجتماعي، والموقع المفترض أو الموضوعية يمثل أداة ميتا- نصية تداولية ومنطقية، ثم العام الممكن والذي يبي سلسلة من المرجعيات الممكنة وتعد من آليات القراءة القائمة على ثلاث مستويات:

بما هو أداة ضرورية للقارئ الكفء.

باعتباره مسجلا في النص.

بتوجيه السلوك المقترح (Propositionnel) لكائنات النص ومكوناته.

يعتبر "أمبرطو إيكو" العمل الفني رسالة غامضة، أي أنه كثافة من المدلولات المتواجدة في دال واحد. وهذه المسلمة عن الأثر المفتوح انطلق منها في كتابه "الأثر المفتوح" وهو عبارة عن توسيع نظري لمداخلة بعنوان: "إشكالية الأثر المفتوح" قام بطرحها سنة 1958 في الملتقى الدولي للفلسفة.

يفهم إيكو الأثر على أنه انفتاح تأويلي قائم على دورة التواصل بين الكاتب والمتلقي (Récepteur) بحيث لا يرى في عمل الفنان أو الأديب المنتجين للجمال إلا مشروعاً من خلال رسالة تحمل موضوعاً بغرض التوصيل والإقناع.

ولعل الخلفيات المعرفية والمرجعية المحورية في كتاب الأثر المفتوح، هي نظرية التواصل والإخبار المستمدة من حقل السيبرانيات (La cybernétique) والتواصل الذي يشمل الإخبار، ولكن لا يستطيع استفادته، فكل إخبار عبارة عن تواصل، ولكن ليس كل تواصل عبارة عن إخبار؛ لأن الكثير من الرسائل لا تحتوي على عنصر الجدة، مما يجعلها مرات عديمة المعنى: فأن أقول مثلاً "إن باريس هي عاصمة فرنسا والجزائر هي عاصمة الجزائر"، فإنني لا أضيف للمستمع شيئاً جديداً، لهذا لا مناص أن ينجر عن ذلك غموض ما بل انعدام في الدلالة¹⁰.

يُعدّ هذا الأمر بداية عند علماء الاتصال والسيميولوجيا، لهذا يعرفه سيميولوجي صديق لإيكو "كليكينرغ"، كما يلي: "تحتل كلمة اخبراً معنى محدد في نظرية الإخبار، أن الإخبار هو ما كان جديداً ومباغتها: لأن أية إجابة لا تحتوي على عنصر المباغته فهي لا تحتوي البتة على عنصر الإخبار"¹¹.

ولم يهتم إيكو بمعطيات نظرية التواصل هذه في مقارباتها للكلام العادي والطبيعي، بل حاول أن يحدد جدلية الإخبار والتواصل في النصوص الجمالية سيما المفتوحة. إن

الرسائل الجمالية لا تولد غموضاً من النوع التواصلي المباشر، الذي لا يضيف للدلالة شيئاً جديداً، بل على العكس من ذلك، يلحظ إيكو، بأن الرسائل الجمالية مليئة بعنصر الإخبار، لأن الغاية المرجحة من كتابتها تكمن في اختراق الشفرات السائدة والأنساق المرجعية الجاهزة. وكلما كانت العناصر الإخبارية ذات كثافة كلما كان الغموض غائماً، وكلما كانت العناصر الإخبارية ضئيلة كلما كانت درجة الغموض سطحية نوعاً ما.

ولنأخذ على سبيل المثال مقتطفاً من ثلاثية أحلام مستغانمي¹²، جاء فيه: "...ماذا تراها تخفي في حقائبها الثقيلة، وكتبها السميكة؟ أنيقة حقائبها، سوداء دائماً، كثيرة الجيوب السرية، كرواية نسائية مرتبة بنية تضليلية كحقيبة امرأة تريد إقناعك أنها لا تخفي شيئاً ولكنها سريعة الانفتاح كحقائب البؤساء المغترين.. أكلُ كاتب غريب به قفل، غير محكم الإغلاق، لحقيبة أتعبها الترحال لا يدري صاحبها متى ولا في أي محطة من العمر يتدفق محتواها أمام الغرباء فيتدافعون لمساعدته على للممة الأشياء المبعثرة أمامهم لمزيد من التلصص عليه؟ وغالباً ما يُفاجئون بحاجتهم بحياة مع أشيائه ... الروائي سارق بامتياز سارق محترم لا يمكن لأحد أن يشبّه أنه سطا على تفاصيل حياته وأحلامه السرية ومن هنا فضولنا أمام كتاباته كفضولنا أمام حقائب الغرباء المفتوحة على السجاد الكهربائي للأمتعة ... أكان ذلك الكتاب هدية القدر؟ أم رصاصته الأخرى؟ أكان حدثاً أم حادثاً آخر في حياته؟ ربما كان الاثنان معا ..."¹³.

ويعتقد إيكو بأن الاستعمال الذي يوليه البشر للأدلة السيميائية، تتوارى خلفه إرادة عظيمة لتبادل ونقل المعلومات، فالمتكلم يروم أن يقر أو يتحدث شيئاً لا يعرفه الآخرون، هذا فهو يتموقع في سيورة تواصلية من نوع¹⁴:

منع - باث - قناة - رسالة - شفرة - مستقبل

ولنطبق مثلاً الحكمة التالية:

"La vie ressemble à un conte; ce qui importe ce n'est pas sa longueur mais sa valeur".

منبع: الثقافة الغربية.

الباث: Sénèque.

فناة: Langue/ parole.

رسالة: "La vie ... sa valeur"

شفرة: "Un conte"

مستقبل: Lecture

لا تخالف هذه الخطاطة الآراء المعروفة في نظريات التواصل، لهذا من الممكن أن نجدها في معظم الخطابات التواصلية مهما تعددت وتنوعت. وقد لاحظ أميرطو إيكو بأن الرسائل الجمالية خاصة الراديكالية منها، محاولة مؤلفيها مسف الشفرات المساعدة على ضمان العملية التواصلية واشتغالها. وعن هذا يعبر في كتابه (الدليل): "من الأجدر أن نختزل السيرة التواصلية التي تنعدم فيها الشفرة، أي تنعدم فيها الدلالة، إلى سيرة أخرى من نوع مخفز - استجابة"¹⁵.

لا يقصد إيكو من استثماره لهذا المبدأ البافلوفي أن الرسائل الجمالية تنحصر وظيفتها في عملية تشريط سطحية تنعدم فيها الدلالة، فالأديب مهما بلغت تغميضاته درجة قصية من الإههام السديمي، فإنه يحاول، ولو لا شعوريا أن يتفاعل تفاعلا تواصليا من نوع خاص مع متلقيه. فقولي الحكمة التالية "آفة العلم النسيان" والتي قابلها في اللغة الأجنبية "Le fléau de la science c'est remèdes l'oublie" قد تبدو غامضة للوهلة الأولى ولكن وبعد فك رموزها وشفرائها تخلق تواصلًا مع المتلقي. ولهذا يمكن أن نعتبر

السيرورة محفز - استجابة بعدا واحدا فقط من أبعاد التجربة الجمالية. ولا نخرج قيمة الانفتاح من أن تكون وتعرف حسب إيكو تنكاثر وتعدد من المعاني المحتملة في رسالة ما ... أي كنتاثر إخباري¹⁶.

إن النموذج التواصلي الذي اعتمده إيكو كان نموذجاً تقريبياً استشكافياً، فإيكو على علم تام بأن هذا النموذج لا يخلو من نقائص وثغرات معرفية، فالوصف السيميائي¹⁷ لا يمكن أن يتوقف عند دراسة الوظائف التواصلية، بل عليه أن يدرس قائمة الأدلة واشتغالات الأنظمة¹⁸.

فالخطاطة التواصلية تسمح فقط بالتعرف على الوظائف وليس على الأشكال، أي معناه أنه يمكن لوظيفة واحدة أن تجسد بواسطة أشكال مختلفة، كما يمكن لشكل واحد أن يحف بوظائف متباينة¹⁹.

ينطلق إيكو من فرضية [**المواضعة الثقافية**] حيث يقول: "ترمي إحدى الفرضيات التي تقوم عليها السيميائية حالياً، إلى أن كل سيرورة من الواصل تبني قواعد وشفرات تتعكز على مواضعات ثقافية، فلو انتابنا شك ما بأن الأدلة تنتج بطريقة حدسية، ومشاركات عفوية واتصالات روحية صرف، خارج كل وساطة اجتماعية، فإننا نقر بأن السيميائية لا وجود لها"²⁰.

2- الأنظمة السيميائية عند إيكو (التقسيم المنهجي):

الأنظمة السيميوحيوانية: العناصر التواصلية عند الحيوان، تتبع السلوكيات البيولوجية أثناء عملية التواصل ...

الأنظمة الشمية: شفرة العطور، الأمارات، indices

التواصل اللمسي: يعد من مجال البسيكولوجيا (Psychologie) ساهمت في تطوير التواصل بين العميان، تشمل السلوكيات الاجتماعية مثل: القبل، الصفع، الضرب على الكتف ...

- شفرات ذوقية: الانتروبولوجيا (كلود ليفي شتروس)، محالات الطبخ ..
- أنظمة لسانية حافية: التواصل اللساني، دراسة الكفائية الداعمة، دراسة الصوت ...

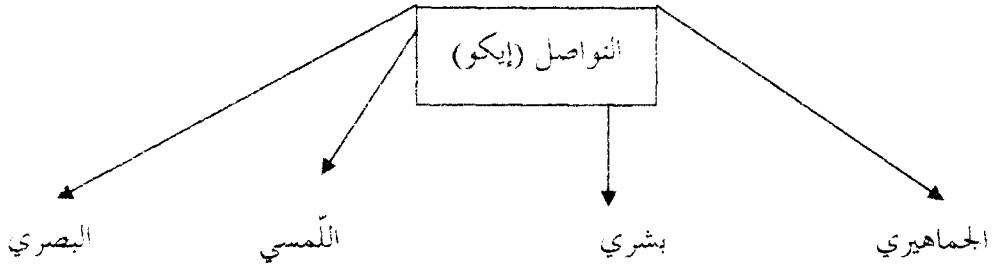
- السيميائيات الطبية: الأعراض المرضية كأمارات الأمانة (بيرس).
- الأنظمة الحركية: الانتروبولوجيا الثقافية، شفرة ثقافية ...
- الشفرات الموسيقية: وصف الحقل التواصل للموسيقى كنسق مبن بصرامة.
- الطبقات الصورية: الميتاسيميائيات، البديل لنظرية المعرفة على رأي جوليا كريستيفا.

- اللغات المكتوبة والشفرات الملعزة: الغراماتولوجيا، الحفريات ..
- اللغات الطبيعية: ميدان اللسانيات العامة ودراسة اللسان بوصف مستوياته.
- التواصل البشري: أم الفروع السيميائية، السينما (كريستيان ميتز)، فلسفة الصورة (ريجس دوبري) ...

- نظام الأشياء: رؤية الأشياء كحوادث تواصلية من الهندسة إلى الأشياء عموما.
- بني الحكيم: معرفة أنظمة السرد داخل الأنظمة/ الخطابات الحكائية: بحوث بروب، جريغاس، بريغون، تودوروف، جينيت ...

- شفرات ثقافية: تتبع الظواهر الثقافية ...

- شفرات ورسائل جمالية: لا تسمح كل شفرة إلا بالاستعمال الجمالي لأدلتها الخاصة ...
- التواصل الجماهيري: الاهتمام بالرواية البوليسية، الثقافة التلفزيونية، نظام الموضة ...
- الأنظمة البلاغية: البحث عن أنساق للتحكم في الإقناع، الحجاج، المحادثة ..



يُعدّ إيكو واحداً من الباحثين الذين دعوا إلى تطوير الدراسات اللغوية بدراسة استعمالها في التواصل في إطاره الاجتماعي وكان من المشاركين في دراسة السياق الذي يجري فيه التلفظ بالخطاب اللغوي وتحليله وتأويله وتبيان مقاصده وكذا معرفة أنواع السياقات وإدراك مدى تأثيرها على توليد الخطاب²¹.

ولعل الاتجاه التواصلية تجسد في عدة مناهج، حيث كُنت لنا إيكو التداولي²² وإيكو النحوي (النحو الوظيفي)، وعالم اللسانيات الاجتماعية²³، وإيكو محلل الخطاب²⁴.

وعلى الرغم من تعدد هذه الدراسات، وخصوصية كل منها في ارتكازها على جوانب مختلفة إلا أنّها خليط في قالب واحد هو التواصل، لذا حاول إيكو مع غيره تحديد

هذا العقل ومعرفة كيفية حدوثه واستراتيجيات المرسل انطلاقاً من مبدأ اجتماعية النشاط التواصلية ونظام مقتضيات اللغة المستعملة فيه ومن أهم خصائصه المؤثرة:

■ الاشتراك في العلاقة والمكان والزمان والمعتقدات والهدف الذي يبنى الخطاب.

■ يجوز التواصل باللغة، كما يجوز بالعلامات والإشارات والرموز (أي سيميائياً).

■ التواصل فعل تخطيطي محكم ذو مقاصد أهمها: التبليغ والإقناع.

■ يعمل التواصل على احترام العرف الاجتماعي وإن اختلف من شخص لآخر²⁵.

ومن أهم ميزات هذا الاتجاه هو اتجاه توظيف اللغة الطبيعية ومراعاة قواعدها ومستوياتها التركيبية والدلالية والصوتية وبالتالي تحقيق مقاصد التواصل وتأويل الخطاب، في حين تميزت الدراسات ذات الإطار العام للتواصل بأنها لسانية مرنة وهنا يتجلى الفرق بين الاتجاهين، كون المنهج الأول بشقيه غير معتمد بما هو خارج نظام اللغة أو بما يحيط بها، كما لا يعترف بقدرتها التأثيرية في بنيتها الداخلية، بينما الاتجاه الآخر يخلط ويختفي بسياق الإنتاج وأثره في بيئة الخطاب²⁶.

الهوامش

• مراجعة : د. محمد بلقاسم - كلية الآداب و اللغات - جامعة تلمسان

أ. حياة لصحف - كلية الآداب و اللغات - جامعة تلمسان

¹ - يُنظر: محمد مزيان، "مدخل إلى نظريات الاتصال المعاصرة"، منشورات دار لالة سكيينة، الجزائر،

ط1، ص: 11.

² - يُرجع إلى: "حدود التأويل: قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي"، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص: 12.

" - نظرية التعضيد التأويلي.

³ - المرجع نفسه، ص: 127 -- 129.

⁴ - سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد: 193، يناير، 1995.

⁵ - محمد خرماش، "فعل القراءة وإشكالية التلقي"، مجلة علامات، العدد 10، 1998. بتصرف.

⁶ - قضايا انعطاف الأدبي، مجلة فصول، مجلد 7، العددان: 3 و4، أبريل-سبتمبر 1987، ص:

27، وأنظر أيضا مجلة دراسات، الجزائر، العدد 1، ماي، 2008، جمادى الأول 1429 هـ، ص: 56 - 57.

⁷ - أنظر لمزيد من الشرح: حولة طالب الإبراهيمي، "مبادئ النسائيات"، دار الفصبة للنشر والتوزيع، 2000، ص: 156.

⁸ - تمام حسان، "الأصول: دراسة استمولوجية لوصول الفكر العربي"، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1997، ص: 387.

⁹ - مجلة علامات، العدد 10، 1998، محمد خرماش، "فعل القراءة وإشكالية التلقي"، بتصرف. أنظر خاصة:

A- La recherche la structure absente, Introduction sémiotique, Paris, 1972.

B- Lector i, fabula ou la coopération interprétative dans les textes narrative, Paris, Grasset, 1985.

¹⁰ - وحيد بن بوعزيز، "حدود التأويل: قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي"، منشورات الاختلاف، ط1، 1429 هـ، 2008 م.

11- Jan Marie Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, édition de boeck, université, Seuils, Paris, 1996, p: 73.

¹² - روائية جزائرية، عابر سرير.

¹³ - أحلام مستغاثي، عابر سرير.

- 14 - وحيد بن بوعزيز، "حدود التأويل: قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي".
- 15- Voir: Umberto Eco, Le signe, traduit par: Jean- Marie Klinkenberg, édition, Labor, Bruxelles, 1988, p: 29.
- 16 - Umberto Eco, L'ouvre ouverte, p: 62.
- 17 - قول جون ماري كليكنبرغ
- 18 - وحيد بن بوعزيز، "حدود التأويل: قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي". ص: 29.
- 19 - Jan Marie Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, p: 63.
- 20 - Umberto Eco, La structure absente: introduction à la recherche sémiotique, traduit par: Ucio Esposito Torrigiani, édition Mercure de France, paris, 1972, p p: 13-14.
- 21 - عبد الهادي بن ظافر الشهري، "استراتيجيات الخطاب: مقارنة لغوية تداولية"، دار الكتاب الجاميد المتحدة، ط1، 2004، ص: 09.
- 22 - يقتل بعض مراجع هذا البحث نماذج للدراسات التداولية.
- 23 - يُنظر: هديسون، "علم اللغة الاجتماعي"، ترجمة: محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1990.
- 24- Deborah Schiffrih: *Discourse markers*, Cambridge University press, 1987, pp: 6-30.
- 25- ج.ب. براون وج. يول، "تحليل الخطاب"، ترجمة: محمد لصفى الزليطني ومدير التريكي، جامعة الملك سعود، 1418 هـ، 1997 م، مقدمة المؤلفين.
- 26- B.J.Haslett, *Communcation; strategies action in context*, LEA, New Jersey, 1987, p: 74.
- 27 - تحدث عدد من الباحثين عن الفروق بين الاتجاهين، والمقارنة بينهما صعبة على رأي البعض.